التحديات المعاصرة على أمتنا
آثارها وسبل مواجهتها

الأستاذ: أمجد رمضان فحلة
دبي / الإمارات العربية

تتكاثر التحديات[1] على أمتنا ويتعاظم أمرها في هذه الفترة العصيبة التي يجتازها العالم العربي والإسلامي، وأعظم هذه التحديات الغزو الغربي الذي يهدد الأمم والشعوب في هويتها الثقافية والذاتية الحضارية والشخصية التاريخية. ويركز على أمتنا للفصل بين الجيل وبين إسلامه لاستئصال الإسلام وقيمه من نفوس الناس.

واتخذ هذا الغزو شكلين خطيرين، تمثَّل الأول بالغزو المسلَّح للسيطرة على البلاد الإسلامية، وإخضاعها بالقوة والتآمر عليها بشتى طرق الاستعمار « وإذا كانت هذه القوة الاستعمارية قد احتلت الأرض وسلبت الأموال، واستغلت الخيرات، وعاثت في البلاد الفساد... وهذا ما أدى إلى شيوع روح الانهزام الفكري، وضياع روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية لدى فريق تخرجوا على أيدي أساطين الاستعمار... الذين أصبحوا من الداعين لأسيادهم بغرس المثل الغربية المادية والفكر المسموم والثقافة الدخيلة [2]».

ونتيجة لذلك انتشر الإلحاد، وانهارت الأخلاق، وابتدئ التقليد الأعمى لأعداء الإسلام والتشبث بأسس الثقافة الغربية والحضارة المادية لدرجة الذوبان الكامل في بعض تفاهات المجتمع الغربي وأوضاعه، حتى صدق فينا الحديث الشريف الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« **لتتّبعنّ سَنَنَ[3] من كان قبلكم، شبرا بشبرٍ[4]وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ[5] تبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله، اليهود والنَّصارى ؟ قال:« **فمن**» [6].

وفي رواية:«**حتى لو سلكوا جحر ضبّ لسلكتُموهُ».**[7]

وتمثل الشكل الثاني بالغزو الفكري الذي رافق الحرب المعلنة على المجتمعات الإسلامية فكان غزواً للعقول والأفكار لتحقيق هدف عام هو إضعاف الإسلام والمسلمين، وكانت آثاره بالغة على الناشئة المسلمة تحت الضغط الاقتصادي الذي أجبر نسبة لا بأس بها من الجيل لتقبل على النظريات والمظاهر العلمية الغربية المنافية لقيم وتعاليم وحضارة الإسلام، وهذا كانت له آثار بالغة الضرر على كل النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

إن النظرة التحليلية لواقع الأمة والعالم الآخر تبدو على الشكل التالي:

العالم اليوم شعوب متقدمة في العلوم والتكنولوجيا والاتصالات: هي التي تنتج القيم المعاصرة، ونظم تحقيقها، ومبادئ هذا الزمان، ووسائل تطبيقها، وبذلك تترك بصماتها على هذا العصر الذي نعيش فيه، وهو لا يخلو من هيمنة على الشعوب التي تتبعها: بحيث تقدر على تحريكها كما تشاء مستفيدة من حالتها الضعيفة في الإنتاج الحضاري.

وإلى جانب هؤلاء، شعوب ضعيفة مستهلكة متَّبعة مستوردة من تلك الشعوب التي تقود المدنية ما ينفع وما يضر من غير أدنى تمييز بين الجيد والرديء، ومن غير مناقشة ولا تمحيص، ولا موازنة ومحاكمة، ولا نقد ومراجعة، وفي الوقت نفسه تتمنى أن تُصبح شعوبا عصرية، وأمما متحضرة.

والحقيقة فإن الحالة التي كانت عليها أمتنا وحالة الشعوب الأخرى قديما، والحالة التي نحن عليها اليوم والتي عليها الآخر في هذا العصر متباينة، فإن « مسار المسلمين ومسار الغربيين يشكّلان خطين متداخلين على التبادل، فحين يكون المسلمون في القمة، يكون الغربيون في القاع، وإذا كان الغربيون في القمة كان المسلمون في القاعدة. عندما يكون المسلمون في طور الأستاذية، يكون الغربيون في طور التلمذة. وعندما يكون الغربيون في طور الأستاذية، يكون المسلمون في طور التلمذة...». [8]

وللبيان نستقرئ ما كان عليه المسلمون في القرن السابع الميلادي عندما بزغ فجر الإسلام وقدم رؤية شاملة للإنسان والكون والحياة والآخرة، مؤيدة بالعلم والعمل لبناء الحضارة الإنسانية التي ارتكزت على المقومات الدينية والقيم الإسلامية، التي كانت ومازالت وستبقى « قادرة على هداية الإنسان، وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان، وعلى منحه طاقات لا حدود لها، من أجل الخير والحق والمحبة».[9] فامتد الفكر الإسلامي على رقعة كبيرة من المناطق الجغرافية في العالم.

وهذه المبادئ والقيم الإسلامية ذات صلة وثيقة بموضوعات اجتماعية وأخلاقية وسلوكية تحثُّ الإنسان على العلم والعمل، والتقوى والعدل والجهاد والسلام، والعفَّة والصبر. وهي في الوقت نفسه تتمتع بسلطة وقوة في المجتمع بناء على الخبرات الإنسانية، المؤيدة بأساليب التشويق والتعزيز، والوسائل والطرائق التي تحقق الغايات النبيلة، والأهداف المثلى، وإلى جانبها ما تتطلبه الحضارة من توفير القيم المادية التي تحتاج إليها كالمال والثروة في عالم الاقتصاد. [10]

وتأتي قيمة العلم في مقدمة القيم الإسلامية البانية للحضارة الإنسانية، وبه يستطيع العالِمُ التعرف على أسرار الطبيعة، والوصول إلى الحقائق الثابتة، وتفسير الظواهر الكونية، والتعرف على ما كان غامضاً على الإنسان... فهو من القيم الإنسانية الأصيلة الهادفة إلى رقي الإنسان وسعادته في جميع مجالات الحياة من حيث الاختصاص والإبداع والتخصّص والتعمق فيه. ولذا حث عليه الإسلام

بجديّة واهتمام، وبفضل ذلك برع الكثير من المسلمين فيه، وارتقوا إلى مرتبة الأستاذية كابن سينا وابن النديم والكندي وابن الهيثم وابن البيطار والفارابي وغيرهم.

وأما الحالة التي عليها الآخر والتي ظهرت في القرن التاسع عشر على شكل مشاحنات وخلافات بلغت أوجها فيما بين النصارى أنفسهم حول طبيعة السَّيد المسيح، وحول صلة اليهودية بالنصرانية، وعلاقة العقل بالإيمان، والفرد بالكنيسة. «**فعاشوا في عصر الظلمات والانحطاط، وكبِّلت حرية الفكر وأوصدت أبواب الاجتهاد العلمي في طريق من يخالف تعاليم الكنيسة الرامية إلى تحقيق مصالح الطبقة الدينية ومن والاها، بل أصبحت رهبانية تعتزل عن الحياة، وتقهر النوازع الفردية**»[11] قال تعالى: ﴿**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها**﴾ «الحديد: 26»

وعلى الرُّغم من الحروب الصليبية التي اندحر فيها النفوذ الصليبي من بلاد الشام، فإن الغربيين انبهروا بالحضارة الإسلامية وتفوقها في المجالات التنظيمية والمدنية والاقتصادية والأخلاقية.

فما الذي حدث بعد ذلك؟

أما المسلمون فأصابهم الوهن والضَّعف، نتيجة ما ألمَّ بهم من ويلات الغزو المسلح وهذا ما أثَّر في الابتعاد عن الالتزام بالمنهج الرَّباني، وهجران سبل التَّقدم والتحضُّر، وعدم الاكتراث بأسباب الرُّقي والنجاة، فأصبحوا شيعاً وأحزاباً، وطوائف وفرقا متعددة، فأصيبوا بالجهل والفقر والحرمان، ولكن عودة إلى القرآن بتدبّر ومسؤولية لوجدوا ما وعدهم عليه ربهم حقا. قال الله تعالى: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون**﴾ «النور: 55» .

وقال تعالى: ﴿**وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم**﴾ «محمد: 38».

ولكن الغربيين استفادوا مما أخذوه عن المسلمين، وفي الوقت نفسه أضافوا عليه الكثير من الإبداع والاختراع والاكتشاف.

فلما جاء القرن التاسع عشر، حيث قدَّم الغرب للعالم المزيد من التقدم العلمي والتكنولوجي، ومعه فرض الهيمنة والنفوذ، والحركات الاستعمارية العديدة التي توجهت نحو العالم العربي والإسلامي، ومازال يهيمن بسلطانه على أمتنا، ويمدُّ نفوذه علينا في أبعاد جديدة إلى يومنا هذا، تأخذ شكل التحديات والضغوط ما بين النظرية والتطبيق، والأسس والأهداف.

ولتحقيق غاياتهم الاستدمارية والسيطرة والاستغلال وتشويه الإسلام وإثارة الشبهات حول القرآن والسنة النبوية ومهاجمة اللغة العربية لإضعافها،

وتفريق المسلمين وإزالة وحدتهم والدعوة إلى القوميات لفسخ عرى الرابطة الواحدة لهذه الأمة، ولهذا استخدموا الوسائل المدنية المضللة، والحربية المدمِّرة، وبرز مع كل ذلك الاستشراق[12] والتبشير حيث استعانوا بالمستجدات العلمية لتنفيذ مآربهم فاستغلوا الإعلام والاتصالات الحديثة.

لقد واجه المسلمون هجمات مسعورة على العرب والمسلمين، تزعمتها الصليبية الحاقدة، بتخطيط منظم، وتنسيق مسبق، وتعاون مع الصهيونية العالمية التي كانت ومازالت تنفث بسمومها القاتلة، وأسلحتها الفتاكة، وأفكارها الهدامة ودسائسها المكيدة. ومكروا مكراً خبيثا للقضاء على الأمة المسلمة.

كما جنَّدت عصابات التبشير طاقاتها لتخريب الضمائر والعقائد، ولصرف المسلمين عن عبادة الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، إلى عبادة آلهة (ثلاثة-لا-بل أربعة) خامسهم الصليب، إلى دين سداه الوثنية ولحمته الشرك، يسمونه الدين المسيحي زوراً وبهتاناً. والمسيح عليه الصلاة والسلام بريء من كلِّ ذلك. فهدف المبشرين تعليم الدين المسيحي، ونشره، وبالتالي تنصير المسلمين، على الرغم من أن الأمم النصرانية تبتعد عن النصرانية، وعلى الرغم من بيعهم للكنائس في ديارهم، إلا أنهم حريصون على تنصير المسلمين، وبناء الكنائس في ديارنا، وقد رصدوا لذلك مئات الملايين من الدولارات، وأرسلوا البعثات التبشيرية مجهزة بكل ما يمكن أن يحقق الهدف الذي قامت من أجله[13]). والذي يتلخص في البنود الآتية[14]:

البند الأول- القول ببشرية القرآن، وأنه انطباع للبيئة العربية في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم وتعبير عن الحياة التي وجد فيها، فهو لا يصلح لزمن آخر.

وأن لغة القرآن الفصحى لا تساير حاجات العصر، فيجب أن تعم العامية حتى تصبح لغة المؤلفات والصحف.

البند الثاني- الإسلام لا يوافق التطور، فالضرورات الاجتماعية تملي على الإنسان التخلف عن تعاليم الإسلام لأن تطبيقه يعني العزلة والتخلف، فإذا أراد المسلمون التطور في الحياة فعليهم الأخذ بما في النظريات الغربية والطرائق العلمية المادية.

البند الثالث- إصابة مواضع إسلامية هامة في الحياة الاجتماعية والدينية لإضعافها وإثارة الشبهات حولها، كما في الطلاق وتعدد الزوجات، وإلى جانب ذلك تضخيم النقاش العقائدي الكلامي، والأهم من كل ذلك تجريد الفكر الإسلامي من كل شيء أصيل.

كما استخدموا الخداع العلموي الذي كان متكأ لكل حركة استعمارية، وكان مما ساعدهم على تنفيذ خططهم ما توصَّلوا إليه من نظريات علمية، وانفتاح على التطور الهائل لوسائل الاتِّصال، لنصبح متَّبعين مقلِّدين، فتصدُقُ بحقِّنا مقولة ابن خلدون الضعيف يقلد القوي والمغلوب يقلد الغالب، فاستمعنا لأحاديثهم،

وتتبَّعنا أخبارهم، والتزمنا بأفكارهم، ونهجنا سبيلهم، وعملنا بالتوافه وتسويق الفن الهابط وتحقق الحديث النبوي الشريف الآنف الذكر...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل استفحل الخطر، ودقَّ ناقوس الشَّرِّ، باتخاذ التحديات أشكالاً متعددة متنوعة نذكر منها:

* التكتلات الضخمة، للهيمنة على مقدرات الشعوب وثرواتها ومنها التكتلات الاقتصادية الإقليمية كالسوق الأوروبية المشتركة (الإتحاد الأوروبي).
* المشاريع الكبرى، للقضاء على المشاريع الصغرى الوطنية كشركات الاحتكار المتعددة الجنسيات.
* الحضارات الكونية، لتلغي الحضارة الإنسانية للأمم الأخرى.
* المنظمات العالمية، لتبتلع الاقتصاد والأموال من قبل المنظمات البنكية كالبنك الدولي ومنظمة النقد العالمية، ولتخدع العالم الآخر بمنظمة الأمم وهيئة الأمم.
* العولمة وفخاخها[15]، وتحدياتها وضغوطاتها واجتياحاتها لغيرهم، حتى ينساقوا متطبِّعين بطابعها، مثقفين بثقافتها، كي يصلوا بموجب مؤتمراتهم إلى إخضاع الإنسان في الأرض ممن ليس منهم إلى التبعية لهم أو لشعب الله المختار كما يزعم الصهاينة الذين يدبِّرون ويخططون لكل ذلك بموجب ما جاء في كتابهم: "بروتوكولات حكماء صهيون" نذكر من هذه البروتوكولات ما يلي:
* إن العنف الحقود هو العامل الرئيسي في قوة دولتنا، ومنه إثارة الحروب وأحكام الإعدام! وإنها لضرورة لتعزيز الفزع لدى الجمهور والدول، ليولد الطاعة العمياء «بروتوكول: 1».
* سنحكم العالم بالأسلوب ذاته الذي تحكم به الحكومات الفردية الدكتاتورية رعاياها «بروتوكول: 2».
* لذا يتحتم علينا أن ننتزع فكرة الله من عقول الأمميين «برو: 4».
* لا بد من تجريد الشعوب من السلاح . «برو: 5».
* إننا سنحيط حكومتنا العالمية السرية بجيش كامل من الاقتصاديين، ونركز على الاقتصاد وسنحيط أنفسنا بألوف من رجال البنوك وأصحاب الصناعات وأصحاب الملايين. لأن المال سيهيء لنا كل شيء .« بر: 8».

والمستخلص من بروتوكولاتهم أن اليهود ذئاب، وعموم الناس غنم تفترسهم الذئاب اليهودية، من حيث إفساد أخلاقهم، وإفقارهم وتجريدهم من أديانهم ومثلهم العليا، وظلمهم وإفساد ضمائرهم وصحتهم النفسية والجسمية، وخنق حرياتهم وهدم اقتصادهم، وإشاعة اللهو والهوى من خمر ونساء ورقص وغناء وعبث ولعب وجنس منحرف وتعرٍّ، وإثارة الخلافات المذهبية والحزبية والقومية والكراهية لإضعافهم، ولإشغالهم عن اليهود، وإبادتهم «انتصروا لحقهم، أو رفضوا الخضوع لهم...»[16].

حتى أن العولمة في حدِّ ذاتها تبدو كشخص اعتباري صهيوني مُرعب يرتدي ثوباً أمريكياً. « وإن بصمات العولمة الصهيونية شديدة التخريب، عميقة

الإفساد في معظم المجتمعات البشرية، فهي من وراء الترويج للأفكار والفلسفات الإلحادية والعلمانية، وهي من وراء تأسيس ورعاية نوادي عبادة الشيطان في العالم، وهي من وراء مافيا الجنس والرقيق الأبيض وتجارة الأطفال والمخدرات، وهي المصنِّعة الأولى لأفلام الدعارة ومجلاّتها وأدواتها ومراكزها، وهي المحركة الأساسية للفتن الداخلية والحروب الأهلية والصراعات الطائفية والمذهبية والعرقية، وهي المالكة أو المساهمة بقوة في شركات النقل والتأمين العالمية». [17]

وما العولمة إلا جملة من المظاهر التي تنتظم في مجالات مختلفة، فهناك العولمة الثقافية والإعلامية والعولمة الاقتصادية والسياسية، وما ذلك إلا لتطبيع العالم بأفكارهم ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. [18]

وتهدف العولمة بخدعها إلى تدمير العقائد والأفكار، وتخريب الضمائر والوجدانات، وشلِّ العقول والأفكار، وانحراف السلوك الموصل إلى الجريمة المنظمة والأمراض الخطيرة كالإيدز لهدم الكيان الاجتماعي.

ومن التحديات التي تواجه أمتنا خاصة في هذا القرن بسط نفوذ الثقافة الغربية التي تستمد معاييرها التفاضلية وتطلعاتها المغرضة من المادية التي تعاظمت في هذا العصر حتى أصبح الإنسان أسيراً للكثير من مظاهر الاستهلاك وحالات الترف والبذخ التي غدت معيار التقدم ومقياس السعادة، حتى أصبح الآخر ناجحاً في تحقيق ما يريد عن طريق إغرائنا بـ(السيارات الفارهة، العمارات الشاهقة، القصور العائمة في الخلجان الدافئة، واليخوت الراسية في مرافئ عواصم الجنس والفجور، والحسابات البنكية التي لا تقبل عدًّا ولا إحصاءً، وموائد القمار العامرة بالإثم والموبقات [19] وإلى جانب ذلك: الدعوة الساقطة إلى الإباحية والمجون المدعومة بكمٍّ هائل من المعارف والعلوم التقنية المتطورة **ونشر النظريات الفاسدة للدين والخلق والاقتصاد، وإسباغ القدسية عليها**. وسخرت كل الوسائل والمواقع من أجل اختراق وتطبيع المجتمعات البشرية، ومن أجل الإحكام والسيطرة على شعوب العالم وأنظمته، ليصبح الفرد في المجتمع الذي تقوده أباطرة العالم المجهول، أشبه ما يكون بالرجل الآلي المسير وفق ما يريدون، **وهذا من إفرازات الصهيونية العالمية الناشرة للعولمة.**

وتمخض عن هذا الوضع اختلاف الصورة التي انطبعت في ذهن الغربيين عن المسلمين، والصور المنطبعة في ذهن المسلمين عن الغربيين، لأن معرفة هذه الصور تحدد المواقف وتغذي التوجهات الفكرية والتجديدات السلوكية لدى الطرفين عامة، والطرف المسلم خاصة.

أما صورة الإسلام في ذهن الغربيين فهي صورة غامضة، يكتنفها الكثير من الجهل والتشويش... حتى أنهم لم يحفلوا بمعرفة كنه الإسلام وجوهره، وما قدَمه لهم المستشرقون من معلومات عن الإسلام، وما قام به البعض من ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الأوربية المختلفة... فتجاهلوا جغرافية العالم الإسلامي

وتاريخه ودينه ومجمل شؤونه: إلا أن ساستهم أقنعتهم بأن العالم الإسلامي عالم دموي متطرف إرهابي أصولي، فهو العدو الذي ينبغي أن ترصد له التحركات المادية والعسكرية بموافقة الكنيسة ورجال الدين عندهم. (20)

وأما صورة الغرب في أذهان المسلمين، فهي ليست صورة واحدة، بل أكثر من صورة، فالبعض يغلب على حسّه، احتقار كل ما ينتمي إلى الغرب، وأن العالم الغربي يتآمر على المسلمين، فهو أكبر مصدر لشقائهم وتخلُّفهم سواء كان ذلك في القديم يوم الغزو الصليبي على بلاد المسلمين، ثم ما نجم عن تحالف الاستعمار مع الصهيونية والتبشير والاستشراق ومع كل جهاز ومؤسسة من أجل الاستيلاء على العالم الإسلامي استيلاءً سياسيا حضارياً إن لم يتيسر الاستيلاء العسكري.

وفي القرن الماضي تكاثفت قواهم وتكالبت مطامعهم التي ظهرت على أثر مؤتمراتهم وندواتهم وأجهزتهم ورجالهم وأعوانهم، كما حدث في المؤتمر الاستعماري في برلين حيث ظهر صوت المبشرين فيه عندما بحث في الفرع الرابع الخاص بالمسألة الإسلامية. (21)

ولكن الشريحة العظمى من المسلمين ترى في الغرب نموذج التقدم والنهضة والحداثة والتغير الاجتماعي، كما أنه مهد للعلم والاكتشاف والتطور الصناعي والتقني، إلى جانب أنه يقدم نموذجاً فذّا على الصعيد الإنساني والقانوني.

وهذه الشريحة لا تتأقلم مع الإباحية والنزعة المادية وتفكك الأسرة فإنها موضع نقد بالغ مع غضِّ الطرف عنها أحياناً. (22)

وقد أثرت هذه الصور تأثيراً سلبياً على الأمة في مختلف المستويات الفكرية والمعرفية بحيث أصبحت الأمة في حالة تأزم في الفكر والثقافة والاقتصاد والاجتماع والسياسة، فهل نقف مكتوفي الأيدي نصرخ بالشكوى والاحتجاج من تدهور الأوضاع والأحوال أم نبحث عن المخرج الحقيقي لهذه الأزمة؟

نقول: تعاني أمتنا آلام مخاض عسير من أجل تجاوز أعباء وتحديات هذا القرن التي أفرزت التخلف والانحطاط والتراجع، فوجب على الأمة التأكيد بكل جدية واهتمام على أمور كثيرة من أهمها:

1- تعزيز الهوية الوطنية الإسلامية، وتربية الأمة على ذلك انطلاقا من العقيدة القائمة على توحيد الله تعالى، والتي تجعل المسلم عزيزا ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**﴾ «المنافقون:8».
2- العناية بالثقافة الإسلامية وباللغة العربية في وسائل الإعلام والاتصال والمناهج التعليمية في مختلف مراحل التعليم.

3- إبراز إيجابية الإسلام وعالميته وعدالته وحضارته وتاريخه المشرِّف وهذا يقتضي نهوض الأمة في شتى الميادين الدينية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية.
4- مواجهة التحديات بكل الوسائل والسبل والطرائق العلمية المنهجية إلى جانب التثقيف والتحصين ورفع الكفاءة وزيادة الإنتاج ومحاربة الجهل والبطالة والتخلف في المجتمع. (23)

كل ذلك من أجل النهضة الحضارية الإنسانية.

وتملك أمتنا من الوسائل والقوة ما يعيننا على المواجهة لا الهروب إلى الخلف أو إلى الأمام، وعندئذ يترتب علينا أن نعرف أنفسنا، وواقعنا، ومخاطبة بعضنا قبل مخاطبة الآخر الذي هيمن ويهيمن علينا، لنصبح قادرين على معرفة الآخر والكشف على مواطن القوة والضعف في الثقافات المختلفة لاسيما الغربية، ودراسة سلبياتها وإيجابياتها برؤية إسلامية متفتحة غايتها البحث والدراسة العلمية، والعمل على التخلص من الإحساس بمركزية الغرب، ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته، ويتوقف ذلك على الالتزام بالمنهج الرباني في جميع مجالات الحياة وربطها بالشريعة الإسلامية مع التمسُّك بثوابت الأمة حتى لا نُخدع برؤية السراب فنظن أننا ملكنا مفتاح الحضارة الذي تتطلب ملكيته تنفيذ جميع عناصر ومرتكزات الخريطة المنهجية التي تستمد أسسها ومبادئها من الإسلام، ونذكر من بين ذلك الأسس الآتية:

1- مواكبة الحضارة، والسير في ركب التقدم العلمي، والتحضر الإنساني، والإسهام في استخدام مقومات الحضارة وأسسها في شتى مجالات الحياة، «وأن نفرِّق بين الحضارة الفكرية والتقدم العلمي الذي نملك منه فلكاً استقلالياً يحررنا من عبودية التقليد، ولَمِّ الفتات المتبقي تحت موائد أولئك المتحضرين، وبين التقدم العلمي الذي يستأثر به أولئك الديمقراطيون المتحضرون ليبسطوا بسلطانه أيديهم على شعوب العالم استعباداً لها ليستغلوا خيراتها وخيرات أوطانها». (24)

وهذا يتطلب منا أن تكون عناصر الإبداع والاختراع في أيدينا للقيام بإنتاج فكري ومادي معاً لصقل الروح، وتطهير الرؤى، وتحسين الإنتاجية.

2- العيش داخل معطيات وعلوم العصر المؤيَّدة بالأحكام الشرعية، لأن العلم حقٌّ مشاع لجميع أمم العالم وشعوبه، يأخذه من يقدر على فهمه وتطويعه للتجارب العلمية التي تتمخض عن مخترعات مفيدة للناس استناداً للمقاصد الشرعية للإسلام، ولقد عرف المسلمون العلم فأخذوا منه وأعطوا، فلم يقصِّروا ولم يضُنُّوا، ولم يكتفوا بالفتات المادي للمتعة، وإنما ساهموا مساهمة فعَّالة في البحث العلمي التجريبي، وكان لهم قدم سبق على غيرهم، وكانوا أصحاب القرار والفعل على ضوء المعطيات العلمية لخير الإنسان من خلال الحضارة الإنسانية.

3- التأكيد على الثوابت الحضارية للأمة، ودراستها واستيعاب الأجيال لها حتى يعرفوا موقف الإسلام من أمور الحياة عامة والعلم والتحضر خاصة، فإن أي تقدم لا يكون إنسانياً إلا إذا ارتبط بالعقيدة ومنطق الشريعة ومبادئ الإسلام، لأنه جاء لمصالح البشرية جميعاً، قال تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ «الأنبياء: 107».

فموقف الإسلام صريح وجريء من العلم والبحث التجريبي بدليل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحضُّ على طلب العلم، والبحث في الكون والكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان، لمعرفة السنن الكونية ومجريات الأحداث والوقائع فيها، قال الله تعالى: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق**﴾ «العنكبوت: 20» وقوله سبحانه: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ «فصلت: 53». وكقوله جلَّ وعلا:﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ «الذاريات :31 ».

ففي هذا دعوة الإنسان إلى استخدام الحواس والعقل في عملية التفكير تجاه الوقائع والأحداث على ضوء الهدى والنور من الإسلام.

4- الأخذ بناصية العلم الذي ينشد النهوض والتقدم والطموح لتحقيق ما تحتاج إليه الأمة في الحاضر والمستقبل، لأن البحث العلمي في أمتنا يشكو من مخاض عسير حيث أننا «لم نبتكر منهجنا الخاص المستمد من ظروف واقعنا المعاش، كما أننا لم نزل ندقق في ما توصَّلوا إليه من أبحاث، فنبدأ من حيث بدؤوا لا من حيث انتهى أمر البحث عندهم، وبالتالي نظل في حالة اقتفاء لآثارهم، بينما هم سائرون بسرعة الضوء إلى حيث يريدون... وكأننا هنا نحصد المواسم بعد فوات الأوان». [25]

5- توفير مرافق الحياة عامة، وأسس العلم والتحضر خاصة للإسهام في الحضارة الحديثة بغزارة وكفاءة من خلال العطاء الثقافي والمادي، ومن خلال التفوق العلمي والتقني: فهناك فجوة كبيرة بين العالم الإسلامي والعالم الغربي على مستوى الدخل والبنية الأساسية والعلم والتقنية وأمور أخرى كثيرة.

ولكي نتجاوز هذه الفجوة لا بدَّ من أن يتهيأ لأمة الإسلام ما يمكنها من توفير الحاجات الأساسية لأبنائها، والمحافظة على استقلالها وكرامتها، كي تتمكن من القيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض.

6- القدرة على تحمل المسؤولية في الأقوال والأعمال والتصرفات والسلوكات، فيهتم المسؤول بتطبيق أمور ذات أهمية في الإبداع والإتقان، نذكر منها ما يلي:

أ- التفوق على الذات: وهذا يعني محاربة الأنانية وحب النفس والإعجاب بها والنرجسية، ففي المجتمع من هم بحاجة إلى التعاون معهم لعجزهم أو

لضعفهم، فإن لم يجدوا من يمدوا إليهم يد العون والمساعدة أصيبوا بالشلل الفكري والضمور الجسدي.

ب- تحديد الغاية النهائية لكل نشاط مطلوب ضمن حدود المصلحة العامة، في زحمة المشاغل اليومية الكثيرة، حتى لا تختلط المسؤوليات مع التوافه والابتدال. وليكن رائد المسؤول إعمال فكره وجهده واغتنام وقته في الأعمال الضرورية والإضافية.

ج- استغلال الوقت والاستفادة منه بما يعود بالفائدة على الفرد والمجتمع، فما تقدمت الأمم إلا عندما اهتمت بأوقاتها وأحسنت اغتنامها فنظَّمتها بدقة ومنهجية وبينت وقت العمل ووقت الفراغ، وقت العمل لإنجاز الأغراض المخطط لها في المنهاج العام ولأداء الأعمال المطلوبة، وتحسين مردود الإنتاج والإنتاجية.

ووقت الفراغ هو الوقت الشخصي الذي يحتاجه الإنسان للقيام بمتطلبات البقاء على قيد الحياة للعناية بالجسم والصحة، ولإشباع الميول والهوايات والرغبات الشخصية.

ولا ريب فإن برمجة الوقت وتنظيمه تضمن للإنسان استغلال أوقاته بحكمة ونجاح فلا كسل ولا إهمال، ولا تبديد للوقت ولا تسويف، ولا تملُّص من الواجبات لإلقائها على الغير.

د- مواجهة المشكلات بشجاعة حيث لا يخلو مجتمع في الأرض من مشكلات، إلا أن مشكلاتنا تتطلب منا استنهاض الهمم. واستخدام الطاقات الفكرية والمادية، والخبرات الكامنة لمواجهتها وإيجاد الحلول العقلية والمنطقية لها كي نتغلب عليها ونتجاوزها، ولا حرج إن استفدنا من خبرات وتجارب الآخر عندما كان في مثل هذه الحالة من المشكلات، حتى ننجح في المحنة التي ابتلينا بها.

7- النقد الذاتي المنبعث من أعماق الوجدان من أجل التقييم والتقويم كي نتمكن من التعبير عن ذاتنا أولاً، ومواجهة هذه التحديات ثانياً، وذلك بعد دراسة الآخر وعلاقاتنا معه، حتى لا نقع بين يديه من حيث لا ندري، وعندئذ تواجهنا حالة ما إذا انطلقنا من منطق الواقع والأشياء أم لا؟

وعندما نعرف أنفسنا، ونعمل على الانطلاق من منطق الواقع لا بد من تأسيس الشروط اللازمة للانطلاق في رحاب الوعي وآفاقه بعيداً عن أطر التقليد الضيقة أو خيارات التبعية المذّلة.[26]

8- تأسيس حياة الأمة على أسس ثابتة ودعائم قوية من أجل الحاضر والمستقبل ومنها:

أ- إقامة البناء الاجتماعي على الاعتزاز والالتزام بالذات العقائدية والثقافية والحضارية، لأن الشريعة قدَّمت للناس جميعا نظاما إنسانيا يحميهم من المؤثرات الخارجية، ويعينهم على مواجهة التحدي الرابض في أرضنا، الجاثم على مقرراتنا.

ب- تأسيس وحدة ثقافية، فكرية اجتماعية، اقتصادية عسكرية، فقد كانت الأمة المسلمة هي الرائدة ذات المكانة العالمية حيث حققت إنسانية الإنسان ودعت إلى الخير والوسطية والعدل والمساواة، والمبادئ الإنسانية التي نادى بها الإسلام، ولا يخفى على أي عاقل ما لوحدة الأمة من فضائل تسترجع بها عزتها وكرامتها وريادتها، ولا عجب في ذلك لأن في الأمة روابط وعوامل مشتركة لتحقيق الوحدة الشاملة، والتي تتجلى في: [(27)]

- وحدة العقيدة والمبادئ في عبادة جامعة هي "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفي أخوة المؤمن لأخيه المؤمن من أجل تحقيق المثل الأعلى في الحياة.
- وحدة القيم الخلقية خاصة في الخير والفضائل.
- وحدة العادات والسلوك والالتزام الصادق بأحكام الإسلام في كل ذلك.
- وحدة الثقافة الإسلامية الواحدة في أصولها وعناصرها وأهدافها.
- وحدة التاريخ وما واجهت الأمة المسلمة من أهوال وكوارث ونكبات وتحديات، وما أحدثته من مواجهات وانتصارات.
- وحدة التشريع والأحوال الاجتماعية، كتشريع الأسرة والأحوال الشخصية وتنظيم العلاقات الاقتصادية بين الناس، ولم يطرأ الخلل على هذه الوحدة إلا في القرن الأخير عندما استبدلت بعض البلاد الإسلامية بالتشريع الإسلامي التشريع الأجنبي.

وهذه الروابط أوجدت الانسجام في طرق التفكير وأساليب السلوك ومظاهر الحياة.

ج- تنقية المجتمع من الفساد الإداري، والرشوة، واستغلال النفوذ، والتسيب، بالإضافة إلى التحرر من قيود التقليد وأغلال التبعية للأجنبي، والتخلص من الولاء لغير المؤمنين، للانطلاق نحو آفاق الإبداع والاستقلال ومواجهة التحديات المعاصرة.

د- فسح المجال أمام الأجيال بحرية، وتدعيمهم واكتشاف مواهبهم، وتنميتها لرسم معالم طريق المستقبل الذي يتطلب تحقيق الأمن الثقافي، وتوفير الثقافة الصالحة للناس جميعاً على أساس المساواة وتكافؤ الفرص.

هـ- إعطاء الأولوية للأمور والخطط والبرامج ذات الأهمية والفاعلية، وتنفيذها في حينها على ضوء الجدول الزمني المعد لها، وتقديم كل ما تحتاج إليه من فكر وجهد ووقت ومال، حتى لا تكون شعارات مجردة سطرت في الصحف وأعلنت في وسائل الإعلام فقط.

و- الإنفاق المالي، والبذل والسخاء على المشاريع التنموية، والتقدم العلمي، والبحث التجريبي بالتعاون فيما بين الأثرياء والمؤسسات العامة والخاصة في كل قطر من أقطار أمتنا لتطوير إمكانياتها العلمية والتقنية والاقتصادية، لتصبح قادرة على تشكيل حاضرها الإبداعي، وبناء مخزونها الفكري والثقافي من أجل المستقبل.

وختاما أقول:

إن مواجهة التحديات في هذا القرن لا تعني أن نكون مرآة تعكس هموم الأنظمة فتجعلنا قلقين خائفين جزعين، تدفعنا لقبول الآخر وجودا وفكراً، بل تبعث فينا روح العمل والنشاط، وتستنهض ما بداخلنا من قوى قادرة على توظيف ظاهرة التحديات لكل ما هو مفيد، بعد إطلاق حرية العمل والإبداع ورسم معالم الطريق نحو القضايا الاستراتيجية بناءً على ما جاء في الذكر الحكيم فيما يتعلق بالتقليد والإتباع، قال الله تعالى: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾** « البقرة: 120» .

الـهوامش

1- التحديات: هي الصعاب أو المخاطر أو القيود التي تهدد الكيان الاجتماعي لأمة إزاء تحقيق أهداف ومرام اجتماعية وإنسانية.
2- الخطيب (عمر عودة): لمحات في الثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: 14 عام: 1418هـ 1997م، ص: 161، 162.
3- سنن: سبل ومناهج وعادات.
4- شبرا بشبر: كناية عن شدة الموافقة لهم في عاداتهم رغم ما فيها من سوء وشر ومعصية.
5- جحر ضب: ثقبه وحفرته التي يعيش فيها، والضب: دويبة تشبه الحرذون تأكله العرب، والتشبيه بجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته ونتن ريحه وخبثه.
6- فمن: أي يكون غيرهم إذا لم يكونوا هم، وهذا واضح أيضا، فإنهم المخططون لكل شر، والقدوة في كل رذيلة.
7- البخاري.
8- بكار (عبد الكريم): عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دمشق، دار القلم، ط: 1 عام 1421هـ 2000م، ص: 14.
9- عفيفي : في أصول التربية . ص : 416 .
10- انظر: دياب (فوزية): القيم والعادات الاجتماعية. ص: 94.
11- ابن الشيخ الحسين (سفيان): ماذا قدمت أمريكا والغرب، أين الطريق؟ ص: 32.
12- الاستشراق: هو دراسة الغربيين للشرق وعلومه وأديانه خاصة الإسلام لأهداف مختلفة شتى ومن أهمها تشويه الإسلام وإضعاف المسلمين.
13- الإسلام اليوم، موقع على الشبكة العنكبوتية.
14- انظر: عثمان (عبد الكريم): معالم الثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: 14عام: 1418هـ 1997م، ص: 100 وما بعدها.
15- عرف العلماء العولمة تعريفات عديدة منها: التدخل الواضح في أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك دون اعتداد يذكر بالحدود السياسية للدولة ذات السيادة أو الانتماء إلى وطن محدد أو دولة معينة ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية، فهي هيمنة للنظام العالمي الجديد.
لمزيد من الاطلاع انظر: السفياتي (عامر بن محمد): العولمة، الرياض، دار الفضيلة، ط: 1عام: 2000، ص: 17-19.
16- الهاشمي (عابد): فضيحة بروتوكولات حكماء صهيون، ص:67 وما بعدها.
17- يكن (فتحي) وطمبور (رامز): العولمة ومستقبل العالم الإسلامي. ص: 18.
18- وما هذه الأفكار والدسائس والمكائد إلاّ نتائج عملية للبروتوكولات الصهيونية، بداية من الماسونية وأفعاها وإلى جانبها الصهيونية القائمة في العالم ومعهم الكثير من النصارى في العالم الذي ينفذون لهم ما يريدون.
19- مقدادي (محمد): العولمة رقاب كثيرة وسيف واحد، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ط: 2 عام 2002 ص: 208.
20- بكار: المرجع السابق، ص: 16، 17.
21- أ. ل شاتليه: الغارة على العالم الإسلامي. ص: 136، تعريب محمد الخطيب وساعد الباقي.
22- بكار: المرجع نفسه.
23- الإسلام اليوم: موقع على الشبكة العنكبوتية.
24- بريغش (محمد حسن): التربية ومستقبل الأمة. ص: 20.
25- مقدادي المرجع السابق. ص: 265.
26- محمود (محفوظ): الحضور والمثاقفة، بيروت، دار النهضة العربية. ص: 115.
27- الخطيب (عمر عودة): المرجع السابق، ص: 165، 166.